

السياسة الاستعمارية في تفكيك قبائل منطقة سطيف (1840- 1945) -قبيلة العلةمة أنموذجا-

عبد الغفور نصر الدين¹، فارس كعوان²

جامعة محمد لين دباغين¹، abdelghafour.nacereddine@yahoo.fr

جامعة محمد لين دباغين²، fares_kaouane@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 06 /07 /2020 ؛ تاريخ القبول: 23 /04 /2022

Colonial policy in the dismantling of the Setif region tribes (1840 -1945) -Eulma tribe as a model-

Abstract: The Algerian society during the 19th century was a tribal governed by many variables, especially the connection with the land, nervousness of the tribe and dealing with the central authority.

This century witnessed a fundamental change in the nature of power, as it moved from the hand of the Turks to the hand of the French occupation, and this change threw its weight on the Algerian tribes, including the El Eulma tribe in the Setif region, as the latter was during the Ottoman era of the "Arria" tribe to pay their obligations Financial, and live a stable life on the whole benefiting from the great economic potential, especially in the agricultural field, and an excellent geographical location with wide plains and many waters.

But in 1838, the occupation managed to control the Setif region, including Al Eulma, and although he initially maintained the organization of the tribe, he soon expanded at its expense, driven by his desire to embody settlement projects, and he worked to dismantle them to take advantage of their economic constituents, as he realized that it was not possible He may continue in Algeria unless the tribe is dismantled and his land is acquired and settlers are brought in. So he applied the real estate laws, especially the Presbyterian law April 22nd, 1863. So the tribe dismantled into five districts lacking meat, then from the circles he created the municipalities, as he established on his lands the settlement center of St. Arnaud and confiscated the lands, It was not until the 20th century until this tribe ceased to exist, and only the name remained must.

Keywords: Eulma tribe; Setif region; dismantling policy; The 19th century; St Arnaud.

الملخص:

كان المجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر قريبا تتحكم فيه الكثير من المتغيرات لاسيما الارتباط بالأرض والعصبية والتعامل مع السلطة المركزية.

وقد شهد هذا القرن تغييرا جذريا في نظام السلطة، حيث انتقلت من الأتراك إلى الاحتلال الفرنسي الذي رمى بثقله على القبائل الجزائرية ومنها قبيلة العلة في منطقة سطيف، هذه الأخيرة كانت خلال العهد العثماني من قبائل الرعية خاضعة تدفع ما عليها من التزامات مالية،

وتعيش حياة مستقرة على العموم مستفيدة مما لديها من إمكانيات اقتصادية كبيرة خاصة في المجال الفلاحي، وموقع جغرافي ممتاز بسهول واسعة ومياه كثيرة.

ولكن في عام 1838 تمكن الاحتلال من السيطرة على منطقة سطيف ومنها العلة، الذي ورغم ابقاءه في البداية على تنظيم القبيلة، إلا أنه سرعان ما توسع على حسابها مدفوعاً برغبته في تجسيد المشاريع الاستيطانية، فعمل على تفكيكها للاستفادة من مقوماتها الاقتصادية، إضافة إلى إدراكه أنه لا يمكن له الاستمرار في الجزائر ما لم يفك القبيلة ويحصل على أرضها ويستقدم المستوطنين إليها، فطبق القوانين العقارية خصوصاً القانون المشيخي 22 أبريل 1863م، ففك القبيلة إلى خمسة دواوير تفتقد إلى اللحمة، ثم من الدواوير استحدث البلديات، كما أقام على أراضيها مركز سانت أرنو الاستيطاني وصادر الأراضي، ولم يكد يحل القرن العشرين حتى زالت هذه القبيلة من الوجود، ولم يبق منها سوى الاسم.

الكلمات المفتاحية: قبيلة العلة؛ منطقة سطيف؛ سياسة التفكيك؛ القرن التاسع عشر؛ سانت أرنو.

مقدمة:

لقد كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي قبيلاً، حيث حافظ الأتراك على ذلك التنظيم الذي وجدوه مع مراعاة تغيير في التراتبية، حيث استحدثوا أربعة أصناف من القبائل وهي المخزن، والرعية والممتنعة والمتحالفة، ولم تكن منطقة سطيف على خلاف هذا الأمر السائد في كامل الجزائر.

وقد كانت القبائل على اختلاف أنواعها مرتبطة بالأرض وما لهذه الأخيرة من أبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، وأي تلاعب بهذا المتغير الحساس سوف يؤدي إلى نتائج وخيمة على القبيلة من حيث البقاء والاستمرارية.

وبعد تمكن الاستعمار الفرنسي من احتلال الجزائر عام 1830، وجد نفسه وجها لوجه أمام القبيلة التي قاومته، وعلم أنه لن يستمر ما لم يتمكن من تحطيمها، وأدرك أنه لن يجسد مشاريعه الاستيطانية على أرض الواقع دون انتزاع الأراضي وجلب المستوطنين ومنحهم إياها وبناء المراكز الاستيطانية، وهذا على حساب القبائل الجزائرية، ولتنفيذ هذه المشاريع سن القوانين العقارية ومنها القانون المشيخي 22 أفريل 1863، حيث تم تطبيقه على القبائل ومنها العلة التي سرعان ما أثرت عليها تداعياته، وتفككت واختفت كقبيلة من الوجود.

الإشكالية: سنقوم في هذا العمل بدراسة الوضعية التي آلت إليها القبائل الجزائرية عموماً والسطايفية على وجه الخصوص خلال القرن

التاسع عشر والعشرين، متخذين من قبيلة العلة أنموذجا، وهذا في ظل سياسة التفكيك التي انتهجها الاستعمار الفرنسي الباحث عن تأسيس عمل استيطاني على أراض القبائل، محاولين الإجابة على مجموعة من الأسئلة أهمها:

- كيف كانت وضعية قبيلة العلة خلال العهد العثماني، ونظ حياتها الذي دأبت عليه؟
- ما هي الوضعية التي آلت إليها قبيلة العلة نتيجة سياسة التفكيك للاستعمار الفرنسي بعد تطبيق قانون 22 أبريل 1863؟
- كيف أثرت السياسة الاستعمارية على مستقبل قبيلة العلة؟

التعريف بقبيلة العلة (لمحة جغرافية وتاريخية):

تقع العلة على بعد حوالي 25 كلم من مدينة سطيف بمحاذاة الطريق الإمبراطوري رقم 5، وتمتد هذه القبيلة على سهل واسع، من جبل ستيتة وساحة واد جرمان والبحيرة المالحة المسماة شط سعيدة، شرقا، إلى هضبة عامر والبحيرة المالحة شط الغرايم غربا، ومن الشمال المنحدرات الجنوبية لجبال أولاد بوحلوف وبني مقران وضفة واد البيضاء جنوبا، يرجع أصلها حسب ابن خلدون إلى القبيلة البربرية كتامة (عبد الرحمن ابن خلدون، 2000: 145)، ولكن ما هو متداول في الرواية الشفهية للسكان فإن أصلهم يرجع إلى قبيلة زناتة، و تبلغ مساحة هذه القبيلة 45089 هـ 76 آر، وبلغ عدد سكانها 10000 نسمة عام 1860

(Rapport de senatus consult de la tribu d' Eulma, 1869: 16)

ويعتقد سكان هذه القبيلة أن اسم قبيلتهم مشتق من كلمتين هما: على والماء، أي أن القبيلة تقع فوق المياه، وهذا مرجح كون المنطقة غنية بالشبكة المائية الجوفية والسطحية، ولكن هناك رواية أخرى تقول أن هذه التسمية ترجع إلى شخص يسمى منصور العولي، قدم من بجاية واستقر في جبال براو، فأطلق اسمه على هذه المنطقة، ثم خرجت فرقة منه واستقرت في بلزمة، كما شهدت هذه المنطقة الكثير من الهجرات كونها أرض جاذبة للسكان بما توفره من مقومات للحياة، فقد قدم إليها مثلا أولاد سعيد بن سالم.

(Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1866: 17)

والعلة قسمين اثنين، القسم الأول هو القسم الأساسي للقبيلة، يقع على بعد 27 كلم من شرق مدينة سطيف، تسكنه خمس مجموعات: أولاد عباس، وأولاد سعيد بن سلامة، وأولاد الربيعي، وقالة، والزاوية، والقسم الثاني لا يسكنه سوى فرع واحد منحدر من أولاد عباس وهو أولاد ناصر . (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 23)

أما من الناحية التضاريسية، فالقبيلة تتكون من مجالين متميزين، تبعا لحالة المناخ، فنجد المجال التلي، يتمركز فيه دوار البلاعة، وجزء من مجال سكرة ومجال السبخات يتمركز فيه معظم دوار بازر ودوار مريود وتوجد به بعض السبخات كسبخة شط سعيدة وشط لغرايم، والجهة التلية غنية وأراضيها خصبة عبارة عن سهول صالحة لزراعة الحبوب، أما

جهة السبخات فهي قليلة الخصوبة ولكن على العموم صالحة للزراعة.
(Rapport de s.c de tribu d' Eulma, 1869: 23)
يتخلل مجال القبيلة شبكة مائية هامة تتمثل في عدة أودية، منها واد
بلاعة، الذي ينحدر من جبال سيدي مسعود، ووادي جرمان، ووادي
أولاد مجاز، واد البيضاء، أما الغابات فتكاد تكون منعدمة، باستثناء
بعض الأجمات، فمجالها يغلب عليه طابع الأراضي المفتوحة السهلية،
وهو الأمر الذي يقال عن الجبال التي تتمثل في بعض الربوات فقط.
أما جغرافيًا، فيتمركز مجال هذه القبيلة في منطقة الهضاب العليا،
وهي مناطق في غاية الاتساع دون وجود عوائق كالجبال والغابات، ويمتد
هذا المجال من برج بوغريج ومجانة، مروراً بسطيف ووصولاً إلى
قسنطينة.

ويعد مجال قبيلة العلة من الأماكن التي عرفت استقراراً بشرياً
قديماً يرجع إلى فترات ما قبل التاريخ، فقد بينت الأبحاث عن مواقع
أثرية هناك، مثل موقعي عين بوشريط الذي اكتشفه كاميل أرامبورغ عام
1931، وعين لحش 1947، ولازالت الأبحاث والتنقيبات تجرى
هناك (متحف الآثار لولاية سطيف، 2001: 4)، كما عرفت القبيلة مرور
الحضارة الرومانية، وهو ما تؤكد الآثار المتواجدة في خربة الكبيرة
ومطاع البيضاء (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 14)

وبعد الفتوحات الإسلامية شهدت المنطقة توافد العديد من
القبائل العربية، ولعل أشهرها قبائل بني هلال التي استوطنت منطقة

السهبوب على غرار قبائل عياد، وفي العهد الفاطمي كانت العلة جزء من هذه الدولة، وهذا نظرا إلى قربها من مقر تأسيس الخلافة الفاطمية على يد أبو عبيد الله الشيعي.

الجوانب الحياتية لقبيلة العلة خلال القرن التاسع عشر:

من خلال استقراء ما نقلته لنا سجلات القرار المشيخي، نجد أن عدد سكان العلة بلغ عام 1860 ما يقارب 10001، منهم 3355 رجل و3243 امرأة، و3401 طفل، ويظهر هنا أن عدد الأطفال يضاهي عدد الرجال تقريبا، ولا يرجع إلى كونهما متساويين في العدد ولكن العرف في القبيلة يجعل من كل طفل يبلغ الخامس عشر سنة رجلا، عُدَّ معهم أثناء الإحصاء من قبل السلطة الفرنسية، وهؤلاء السكان موزعون على مجموعة من الدواوير، يتكون كل دوار من مجموعة من المشاتي، وتسكن العائلات العلمية الخيام والقراي، ويرجع هذا إلى عامل مؤثر جدا وهو الاستقرار والترحال، فبعض سكان القبيلة يسكنون الخيام كي يسهل عليها التنقل أثناء فصل الشتاء فيما يعرف برحلة العشابة والعزابة، والعشابة حركة تقوم بها قبائل الجنوب نحو الشمال بحثا عن المراعي اللازمة لقطعانها وتكون مع انتهاء عملية الحصاد وتستمر حتى بداية فصل الخريف، أما العزابة فهي حركة تقوم بها قبائل الشمال نحو الجنوب بحثا عن المراعي وهروبا من برد الشتاء، تبدأ مع بداية فصل الشتاء وتنتهي مع بداية فصل الربيع، وهذه الحركات كانت تتم بواسطة المعاهدات القبلية والتحالفات وتدخل رجال الزوايا والمرابطين، ويعيش

سكان القبيلة مع بعضهم وفق الأسس المتعارف عليها في التنظيم القبلي، كالعصبية والتضامن القبلي. (Yazid ben Honnet, 2007: 155)

وبحكم أن قبيلة العلة لا توفر لنفسها كل حاجيتها والمجال يضم قبائل أخرى، فقد دخلت هذه القبيلة في علاقة تبادل المصالح والمنافع مع غيرها من القبائل، خاصة قبائل الجنوب التي تأتي كل فصل صيف للانتجاع، مقابل بعض الرسوم، ومنها قبائل الحضنة الشرقية، فكل صيف تأتي بقطعانها إلى مجال العلة، وهذا بعد الاتفاق مع شيخ القبيلة، ومن الأماكن المسموح لهم بقصدها والانتجاع فيها:

- جبل سيدي مسعود بدوار البلاءة: مساحته 402 هكتار.
- ذراع بودريمة بدوار مزبود، مساحته 158 هكتار.
- أرض رعوية بدوار سكرة مساحتها 422 هكتار.
- جبل براو بدوار بازر مساحته 414 هكتار، 65 آر.
- جبل التلة، بدوار التلة، مساحته 2832 هكتار، 03 آر.

وفيما يخص الوضع الصحي السائد في القبيلة، فتشير المصادر التاريخية أنه كان جيدا خالي من الأمراض، ولم تشهد القبيلة موجات وباء كالطاعون مثل ما عرفته العديد من المناطق، وما ساعد على هذا الأمر هو عدم وجود بؤر لانتشار الأمراض كالمنتنعات والأوساخ.

أما من الناحية الثقافية، فالقبيلة لم تكن توجد فيها لا مدارس عربية ولا فرنسية، والمستوى التعليمي كان ضعيفا، وربما يرجع هذا إلى سطوة الاحتلال ومحاربه للهوية الجزائرية فما إن حل بالعاصمة حتى بدأ

في تهديم المساجد وتحويلها إلى إسطبلات ومستشفيات وكاتدرائيات على غرار ما حدث لجامع كشاوة (سعد الله أبو القاسم، 1992: 82)، ولكن رغم هذا نلاحظ حضور بعض المساجد الزوايا التي تصدت لهذه المهمة، مثل الزاوية الملحقة بمسجد سيدي مسعود أبركان، فيها 20 تلميذ، والزاوية الثانية ملحقة بمسجد سيدي الطيب بن ربيع، يدرس بها 12 طفل، والزاوية الثالثة ملحقة بمسجد سي هو بن الربيع ويدرس بها 15 طفل، وقد لعبت الأوقاف دوراً في استمرارية التعليم رغم ضعفه على غرار ما كان سائداً في كل الجزائر خلال الفترة الحديثة.

(Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 55)

ويجمع المؤرخون على أن الطابع الاقتصادي السائد في الجزائر خلال العهد العثماني هو الطابع الفلاحي فجل السكان كانوا يعتمدون على الزراعة وتربية المواشي، ولم يستثن هذا الوضع قبيلة العلة، رغم وجود بعض النشاطات الأخرى كالتجارة والحرف ولكن على نطاق ضيق، وقد تمثل النشاط الاقتصادي الممارس في قبيلة العلة في:

الزراعة: تعتبر الزراعة هي الغالبة في قبيلة العلة، فالجميع يمارسها، خاصة مع وفرة أراضي العرش، وجودة التربة في إقليم سطيف ككل التي يذكر الرحالة أنها زرعت أربعين سنة دون الحاجة إلى السماد، هذا دون أن ننسى وفرة التساقط وانتظامه في غالب الأحيان، ووجود شبكة مائية مهمة مثل ما ذكرنا آنفاً. (Calparé de Arthur, 1896: 92)

وتعد الحبوب من أهم ما تزرعه القبيلة، باعتباره الغذاء الرئيسي

لها، ناهيك عن سهولة زراعته وتوفر الجو المناسب، حيث تحرث 1082 جابدة، مع مراعاة أن الجابدة تتراوح بين 10 إلى 20 هكتار، وذلك حسب طبيعة التربة، وقد تنوعت أنواع القمح التي تزرعها القبيلة ومنطقة سطيف ككل، نذكر منها: البليوني، والهيلي، ومحمد البشير، والتونسي، والمحمدي، والبلغومي، والمحمودي. (J. Varlet, 1900: 93)

كما مارست القبيلة زراعة الخضراوات وأشجار الفاكهة مستفيدة من مياه الأودية التي تمر بمجالها، فتشكلت على امتداد الأودية عدة مزارع في غاية الازدهار، أما فيما يخص تربية الحيوانات، فقبيلة العلة من القبائل التي تملك ثروة حيوانية مهمة، كما هو موضح في الجدول:
جدول رقم(01): جدول يمثل الثروة الحيوانية لدى قبيلة العلة منتصف القرن التاسع عشر

الثروة الدوار	عدد الجابدات	الجمال	الأحصنة	البغال	البقر	الغنم	الماعز
بلاعة	200	00	424	209	366	7046	406
مريود	202	4	391	255	238	6054	463
سكرة	230	9	438	325	243	7905	445
بازر	270	16	522	399	353	7026	441
الثلة	180	12	340	243	115	5536	627
المجموع	1082	41	2115	1431	1315	33567	2362

المصدر: (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 30)

التعليق على الجدول: الملاحظ من الجدول الثروة الحيوانية الكبيرة التي تمتلكها قبيلة العلة، لاسيما الغنم، فطبيعة المنطقة المفتوحة والسهلية تساعد على هذا النشاط، أما الماعز فهي قليلة مقارنة بالغنم، ومرد هذا أن الماعز حيوان جبلي يتأقلم مع الجبال والتضاريس الوعرة، والملاحظ أيضا أن بعض الفروع من هذه القبيلة، تمتلك الجمال، وربما يعود هذا إلى حركة الترحال التي تمارسها نحو الجنوب، ضمن العشابة والعزابة، أما الخيول فهي معتبرة أيضا، فمنطقة سطيف ومنها العلة كما يخبرنا دوماس كانت من أكثر المناطق امتلاكاً للخيول ذات السلالة الجيدة وتتفوق بهذا على معظم قبائل الشرق الجزائري، تملك 1600 حصان عام 1851. (E. Dumas, 1851: 218 219)

وقد استفادت قبيلة العلة مما تملكه في القطاع الفلاحي لتأسس تجارة كبيرة، حيث اعتادت على ارتياد سوق سطيف الذي يقام بالأحد ويستقبل الناس من كل مكان، فيذكر الرحالة الألماني هانريش فان مالتسان أن هذا السوق هو المقصد الأساسي لكل سكان الناحية، كما قصد سكان هذه القبيلة سوق سانت أرنو بعد الاحتلال الفرنسي (هانريش فان مالتسان، 2009: 171 172).

وحملت العلة معها إلى السوق بعض الصناعات التقليدية كالحايك والبرنوس والزرابي إضافة إلى الحبوب كالقمح والشعير والحيوانات، كالأحصنة والبغال والحمير والماعز والغنم، لتبيعها أو تقايضها ببعض المنتجات التي لا تملكها

(Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 47) مثل زيت الزيتون
والتين المجفف وبعض الأدوات الفلاحية كالمحاريث والفؤوس، وعصي
الأدوات الفلاحية التي كانت تأتي بها قبائل شمال سطيف كبنى ورثيلان
وبنى يعلى (Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, 1891: 42)
ولا شك أن هذه الأنشطة المتنوعة ساهمت في جعل المستوى
المعيشي جيداً للقبيلة، بحيث لم تقيد المصادر التاريخية حدوث أزمات
غذاء أو مجاعات (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 48).

قبيلة العلمة أواخر العهد العثماني:

طبق العثمانيون منذ قدومهم إلى الجزائر سياسة تراتبية للتمييز بين
القبائل، فاستحدثوا القبائل المخزنية المتعاونة مع السلطة مقابل الاستفادة
من بعض الامتيازات كالإعفاء من الضريبة والقبائل الرعية التي خضعت
لإرادة السلطة، عليها تقع جميع الأعباء كدفع الضرائب وأعمال السخرة،
والقبائل الممتنعة التي بقيت خارج سيطرة السلطة متحصنة في الأماكن
البعيدة والوعرة، ولم تستثن هذه القاعدة قبائل سطيف ومنها العلمة، التي
دخلت في الصنف الثاني، أي الرعية (أرزقي شويتام، 2009: 233).

وللتحكم أكثر في القبيلة فقد عمدت السلطة العثمانية إلى تقسيم
النفوذ فيها بين شخصيتين، الأول من عائلة عربية هي عائلة أحمد
بوعكاز، وهي عائلة شهيرة في بايلك الشرق أصلها من بسكرة، الذي
تشير المصادر التاريخية على أن سيرته حسنة وساس الأمور بذكاء
وحكمة شديدين، واستقر في سهل بازر، ولتخليد ذكراه الطيبة في

النفوس أقيم له مسجد هناك، أما الشخصية الثانية فهو من أولاد سعيد بن سلامة. (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 17)

كما قامت ببناء برجين ووضعت فيهما
حاميات عسكرية يشكلان أراضي العزل الموجودة بالقبيلة، وهما:

- برج تاشودة: يقع في الحدود الشمالية للقبيلة عند بني مروان
على الطريق السلطاني، ملحقة به أرض مساحتها 2500 هكتار، منحت
منها 118 هكتار، 10 آر، لعائلة أولاد سعيد بن سلامة التي ذكرناها آنفاً.

- برج أولاد محار: بمحاذاة الوادي الذي يحمل هذا الاسم،
وبالقرب من الطريق السلطاني الرابط بين قسنطينة وسطيف، ويبدو أن
هذا البرج لم يخصص فقط لمراقبة قبيلة العلمة، ولكن يشمل تأثيره بعض
قبائل المنطقة، كقبيلة عامر، وملك الباي سابقاً في نواحي هذا البرج ما
يقارب 965 هكتار، صودرت بعد الاحتلال وألحقت بالمركز الاستيطاني
سانت أرنو (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma , 1869: 18 19)

والمأمل لموقع العلمة وواقعها يجد أن دخولها فيما يعرف بالقبائل
الرعية لم يكن من قبيل الصدفة، ولكن كانت وراءه العديد من الأسباب،
أهمها:

- التضاريس: بحكم أن قبيلة العلمة تتمركز في السهول المفتوحة،
وعدم وجود تضاريس وعرة كالجبال لم يمنح لها فرصة الامتناع والهروب
من الرقابة، فبد السلطة تطالها بكل سهولة.

- الموقع الجغرافي: إن العلمة تقع على الطريق السلطاني الرابط بين العاصمة الجزائر وعاصمة بايلك الشرق قسنطينة، وهو طريق مهم جدا للسلطة التي لم تكن لتخاطر وتجعل القبائل التي هي بمحاذاته بعيدة عن الخضوع والسيطرة.

- وجود قبائل مخزنية بالمنطقة: حيث تحيط بالعلمة أو قرية منها العديد من قبائل المخزن القوية التي هي يد السلطة، فنذكر على سبيل المثال أولاد موصلي، الذين يتمركزون في الغرازلة، وقبيلة ريغة القوية التي تتمركز في نواحي ما يعرف حاليا بقصر الطير وما جاورها، حيث كانت هذه القبيلة على علاقة وطيدة بالسلطة، وقد دخلت ريغة في صف قبائل المخزن عندما أصبح وادفل بن وادفل شيخا عليها وقرر الاستناد إلى السلطة، وهو أمر لطالما عاد بالفائدة عليها، خصوصا الامتيازات المالي (Rapport de s.c de la tribu de riga Dhahara, 1866: 25) إن الثراء الذي كانت تتمتع به قبيلة العلمة، ورغم عودته عليها بالفائدة، إلا أنه شكل عليها نقمة، فمواردها العديدة كانت مطمعا للسلطة التي تبحث دائما على ملء الخزينة من الضرائب، ولم تكن لتسمح بضياح كل تلك الأموال من أيديها.

لذلك نجد أن قبيلة العلمة دفعت العديد من الضرائب للأتراك، وقد أشار إليها تقرير روسو إليها، فبلغت مثلا 600 ريال بوجو للعلمة الزاوية القلايمية بالنسبة للعشور، و800 ريال بوجو كضرائب الحكور (ناصر الدين سعيدوني، 2013: 164).

ولهذه الأسباب، لم تستطع هذه القبيلة أن تفعل شيئا لتغيير وضعها، إلا مرة واحدة عندما ثارت وقامت بانتفاضة قادها أولاد منصور العولمي في عهد أحمد باي آخر بايات بايلك الشرق (Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, 1869:17)، وقد كانت هذه القبيلة من القبائل التي اعترضت طريق الحاج أحمد باي أثناء عودته من العاصمة بعد خوضه لمعركة سطاوالي، فما إن سمعت بهزيمته حتى اعترضته، وهو الأمر الذي يؤكد أنه أحمد باي في مذكراته مشيرا إلى أن ذلك كان بإيعاز من بعض أعيان قسنطينة الحاقدين عليه (الحاج أحمد باي، 1971: 33).

قبيلة العلمة والسلطة الفرنسية:

في عام 1838 تمكن الاستعمار الفرنسي من احتلال منطقة سطيف، فأخذ يوسع مجال سلطته ونفوذه، فاستولى على مدينة سطيف وأجزاء من قبيلة عامر، لتلحق العلمة بهؤلاء، حيث خضعت دون أي مقاومة وبشكل تام عام 1840، على حال الكثير من القبائل الرعية، وقد احتفظت لها السلطة الفرنسية بالتنظيم الذي كانت عليه حتى عام 1848، ويبدو أن هذا لم يكن حبا في الإبقاء على التنظيم بقدر ما هو عدم تمكن الاحتلال من فرض واقعه بحكم أنه حديث العهد بالمنطقة، إذ بعد هذا التاريخ ستشهد هذه القبيلة الكثير من التغيرات على مختلف الأصعدة.

بدأت السلطة الفرنسية في إحداث التغير بعدما عينت لخضر بن عون شيخا على القبيلة، والذي شمل نفوذه قبيلة عامر، وأولاد موصلي وعين تاغروت، ولكن ميول هذا الشيخ لعائلة بوضياف أكبر العائلات

في بوسعادة، والحضنة ككل (المسيلة)، أثار شكوك الفرنسيين، خاصة مع تقارب عائلة بوضياف مع الأمير عبد القادر في تلك الفترة، فعوضته بالشيخ أحمد بن سليمان الذي كان لا يزال قايده في عام 1860م. (Rapport de s.c)

(de la tribu d'Eulma, 1869: 17 18)

تطبيق القرار المشيخي 22 أفريل 1863 على القبيلة:

إن الموقع الاستراتيجي الذي تحتله العلة، وجودة أراضيها ومساحتها الكبيرة، أسالت جذبت السلطة الفرنسية الباحثة عن التوسع والاستيطان، فبدأت في انتزاع أراضي من القبيلة وتمزيقها، وكانت بداية ذلك بالاستيلاء على أراضي الأبراج والعزل التركية الموجودة في القبيلة، للتواصل هذه العملية كما يلي:

- 1856 تم الاستحواذ على أراضي أخرى وكان ذلك في المكان المسمى زاوية قلايمية، وواد القبية، ومجموع مساحتهما 965هـ، 35 آر، 40س آ من أجل إنشاء مركز سانت أرنو

- 1857 تم الاستحواذ على الزاوية، ومنحت لعامر القبالة كتعويض لما لحق لهذه الأخيرة من ضرر عقب مصادرة 20 ألف هكتار من أراضيها ومنحتها لشركة جينفواز السويسرية، هذه الأخيرة التي استقدمت من أجل إعداد مشاريع استيطانية في منطقة سطيف.

- 1860 أخذت بعض الأراضي من قبيلة العلةمة ومنحت لقبيلة
ريغة القبالة، التي كانت على وفاق مع السلطة الاستعمارية
الفرنسية. (Rapport de la tribu d'Eulma, 1869: 18)

وفي 22 أبريل 1863 صادق مجلس الشيوخ الفرنسي على نص
قرار قدمه الإمبراطور نابليون الثالث يقضي بتحديد القبائل الجزائرية
واستحداث الملكية الفردية فيها دعماً للاستيطان الفرنسي وظهور الحاجة
للمزيد من الأراضي، وشمل هذا القانون قبيلة العلةمة التي تم تحديد
مجالها بقرار مؤرخ في 5 ماي 1869 ومضى من قبل نابليون الثالث.

ولهذا تكونت لجنة من مختلف المصالح الفرنسية للمشاركة في
العملية، وكان في اللجنة، رينغاد، أوجيرو، دوبونتاف رئيس المكتب
العربي بسطيف، بيرنارد محافظ أملاك الدومين، والمترجم العسكري
ميّار، كما حضر العملية، أعيان القبيلة وأعيان القبائل المجاورة لقبيلة
العلةمة، وقد كانوا كما التالي:

جماعة العلةمة: أحمد بن سليمان (شيخ)، سي رابح بن الأطرش،
عمار بن عبد الكريم، كما حضرت عمليات التحديد جماعات القبائل
التي لها حدود مع العلةمة على غرار جماعة قبيلة أولاد عبد النور وريغة
وعامر والحضنة الشرقية.

بدأت عمليات التحديد، فانتقلت اللجنة إلى القبيلة بجمعية أعضاء
جماعتها، وبدأت عملية التحديد والتقسيم مع أخذ كل المعلومات
الضرورية حول القبيلة على غرار مساحتها ودواويرها.

تقسيم القبيلة إلى دواوير: بعد تحديد مجال العام للقبيلة قررت اللجنة تقسيمها إلى خمسة دواوير، ولكل دوار حدود تنفيذًا للمادة الثانية من القرار المشيخي وهذه الدواوير هي البلاعة، ومريود، وسكرة، وبازر، والتلة، كما هو موضح في الجدول:

جدول رقم (02): جدول يمثل الدواوير المنبثقة ومساحتها وعدد سكانها بعد تطبيق القانون المشيخي 22 أبريل 1863.

الدوار	المساحة (الهكتار)	السكان (نسمة)
بلاعة	5913 هـ	1679
مريود	5116 هـ 60 ل	1942
سكرة	9084 هـ 50 ل	2374
بازر	10631 هـ 70 ل	2359
التلة	14343 هـ 06 ل	1647
المجموع	45089 هـ 76	10001

المصدر: (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 30)

وبعد هذا التقسيم تحول ساكن القبيلة سابقا، والذي تشده إليها الأرض والتضامن القبلي والعصبية، إلى سكان بالدوار ومرتبطة به أكثر، فأرضه هناك، وممنوع عليه الانتقال إلى دواوير أخرى إلا بتراخيص تقدمها السلطة، ولهذا الدوار جماعته الخاصة المعينة بقرار حكومي فرنسي، وغيرها من الأمور المنبثقة عن عملية التفكيك، وهذه هي المرحلة الثانية في فك اللحمة وبداية التفكيك.

من الدوار إلى البلدية: بعد تحديد الدواوير، صار في إمكان السلطة الفرنسية أن تخطو خطواتها الثالثة في سبيل القضاء على القبيلة بشكل نهائي وهذا بإلحاق الدواوير بالبلديات، فألحق دوار البلاعة ببلدية بير العرش، وشكل كل من دوار بازر وسكرة، بلدية بازر سكرة، ومريود ألحقت ببلدية العلمة التي قامت على أنقاض قبيلة العلمة، أما التلة فقد ألحقت ببلدية بيضا برج (Abdelkrim Badjadja, 1974: 63) وهكذا فإن تلك القبيلة الواحدة (81)

التماسكة، ما إن مرت عليها بعض سنوات حتى أصبحت مشتتة على عدة بلديات ولم يعد سكان القبيلة ذلك الكل المتجانس وإنما أشخاص قد فرقت بينهم الحدود، ورغم بقاء اسم العلمة متداولاً إلى اليوم، إلا أن القبيلة العريقة التي تحمل هذا الاسم بما كان يحمله من دلالات اجتماعية وثقافية واقتصادية متميزة قد اختفت.

الاستيطان الفرنسي في قبيلة العلمة: نظراً للإمكانات التي تحوز عليها هذه القبيلة، فقد لفتت أنظار الفرنسيين منذ البداية الأولى لاحتلالهم لمنطقة سطيف عام 1838.

ويظهر هذا من خلال تحركهم الميداني، فسرعان ما حاولوا تأسيس مركز استيطاني هناك، وهذا ما نلاحظه في عام 1856 حين اقتطعت من مجال القبيلة بعض الأجزاء من قلايحية وواد القبية بمساحة قدرت ب 965 هـ، 35 آر، 40 س آ، لإلحاقها بمركز سانت أرنو قيد التأسيس.

ثم تقرر إنشاء بلدية سانت أرنو التي تحمل اسم الجنرال الفرنسي السفاح سانت أرنو، وذلك بقرار 19 نوفمبر 1883، متبوعاً بقرار تنظيمي مؤرخ في 10 ديسمبر 1868، وقد تشكلت هذه البلدية من مجموعة دواوير ومناطق مختلفة، وهي: عزل أولاد ذهاب وهو مركز البلدية، عبارة عن أراضي خصبة كانت في السابق ملكاً للأتراك وتابعت لمجال قبيلة عامر، يبعد عن سطيف حوالي 27 كلم، مساحته 1544 هـ، 86 آر، 77 س آ، حيث استولت عليه السلطة الفرنسية وألحقته بالدومين في عام 1860، ووادي جرمان، والأراضي المحيطة به، وهي أراضي خصبة صودرت من أجل تطويرها كمزارع لصالح الكولون، القلعة الزرقاء، وادي سراي وهي تركز فيها خليط من السكان الأصليين، وقد تشكلت هذه البلدية من عدد سكان بلغوا عام سنة 1883 ما مقداره 120565 ساكن، بتطور ملحوظ عما كانوا فيه عام 1868، حيث كانوا في حدود 12652 ساكن، وهم من عدة أصناف فبالإضافة إلى الجزائريين نجد الفرنسيين، والأوروبيين واليهود والمغاربة (F. Accord, 1892:148)

تأسيس المركز الاستيطاني سانت أرنو: يعتبر الاستيطان وتشجيعه من أهم العوامل التي دفعت بالمشرعين الفرنسيين إلى إعداد القوانين العقارية لاسيما قانون 22 أبريل 1863، حيث جاء كوسيلة منهم للإيجاد الوعاء العقاري اللازم لتركيز المستوطنين الأوروبيين في الجزائر بهدف فرنستها.

حيث هدفت جميع العمليات العقارية المترتبة عنه إلى كشف
الأملاك الشاغرة قصد الاستيلاء عليها، فبعد هذه العمليات أصبحت
السلطة الفرنسية الغربية عن الجزائر والتي كانت لا تملك شيئاً، تملك
آلاف الهكتارات وتقاسمت مختلف المصالح الفرنسية هذه الأراضي، كما
هو موضح في الجدول:

جدول 03: جدول يمثل أصناف الأراضي المنبثقة بعد تطبيق القانون المشيخي 22 أبريل 1863 على قبيلة العلة

نوع الأرض	الملك	أراضي جماعية للزراعة	أراضي مشتركة	أملاك عامة	أملاك الدومين	المجموع
المساحة (هـ، أ، من أ)	59.87.393	07.43.32253	10.14.8456	10.14.168	24.81.3817	00.76.45089

المصدر: (Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869 : 30)

التعليق على الجدول: يوضح لنا الجدول أنواع الأراضي التي
انبثقت عن عملية التحديد والتقسيم التي كانت قبيلة العلة عرضة لها،
ويبدو أن السلطة الفرنسية قد بلغت هدفها من وراء العملية باعتبارها قد
وجد الأراضي التي سمتها (شاغرة) واستحوذت عليها، وألحقتها بمصالح
الدومين والمشاركة ومصالح الغابات وغيرها، ورغم أن الجدول يبين أن
أراضي العرش القبيلة كانت لا تزال موجودة، إلا أن هذا سرعان ما
ستختفي، باعتبار أن السلطة الفرنسية ذات الهدف التوسعي سوف
تستحوذ على المزيد من الأراضي، أو تضغط على السكان بمختلف
الضغوطات قصد التخلي عن أراضيهم.

بعد الانتهاء من العمليات العقارية والتي سمحت بإيجاد والوعاء
العقاري لللازم لتأسيس الاستيطان، شرعت السلطة الفرنسية في تنفيذ

المشروع، فأرسلت لجنة مكونة من بعض الشخصيات التابعة لعدة مصالح، كمصلحة الأملاك العامة، مصالح البلدية، المصالح الطبية للتأكد أن المنطقة خالية من كل مسببات المرض، ومصالح الري، للتأكد من أن المنطقة فيها كل الظروف خصوصاً الماء لتأسيس مركز استيطاني، وقد خلصت اللجنة إلى أن كل الظروف مهيئة للبناء.

أنشأ المركز بعد الانتهاء من عمليات السيناتوس كونسيلت، ولكن بعض الكولون تحصلوا على أراضي هناك قبل هذا، ثم توسع المركز ليصل في ماي 1945 إلى مساحة تقدر بـ 3013 هـ، 94 آر، 91 س آر، موزعة على مختلف المصالح، على الشكل التالي:

(Rapport de centre de colonisation de Saint Arnaud, 1945: 1)

- أراضي خصبة: منحت للمعمرين وبعض الجزائريين، مساحتها: 2939 هـ، 51 آر، 10 س آر.

- أملاك الدومين: مساحتها 14 هـ، 51 آر، 80 س آر.

- أملاك جماعية بين مختلف المصالح، مساحتها 324 هـ، 34 س آر.

- أملاك عامة تشمل الطرق والحدائق والسكك الحديدية، مساحتها: 35 هـ، 91 آر، 67 س آر.

وقد حصل المعمرون في أراضي الامتياز الخصبة على قطع أرضية قصد البناء والفلاحة، فلكل واحد منهم ثلاث قطع أرض واحدة في المجال الحضري والآخرين في المجال الريفي حيث توجد الأراضي الواسعة المهمة للزراعة، وهذه النظام هو المعمول به في جميع المناطق ذات

النشاط الفلاحي عند إنشاء المراكز الاستيطانية حسب ما اطلعنا عليه من سجلات، و لصعوبة حصر هؤلاء المعمرين نكتفي بذكر أمثلة فقط (Rapport de centre de colonisation de St Arnaud, 1945: 28):

- حصل المعمر ماسي جون بابتيست Massy Jean Baptiste : على المساحة نفسها في المجال الحضري كالمعمر بارث أونتان، أما في المجال الريفي، فقد تحصل على 26هـ، 84آر، 10 س آر، وذلك بموجب قرار صدر عن الحاكم العام للجزائر مؤرخ في 30 جويلية 1863. ومن خلال فحص سجل المركز الاستيطاني، نجد أن جميع المعمرين قد حصلوا على مساحات متساوية من الأرض، وأن العمل الاستيطاني يمشي بصورة منتظمة، فما بين المعمرين السالفي الذكر 10 سنوات إلى أن المساحة المتحصل عليها هي نفسها.

- حصل المعمر بارث أونتان Berthe Ontaine : على قطعة أرض في المجال الحضري مساحتها: 10آر، 50س آر، لبناء منزل ملحق بجديقة، وقطعتي أرض في المجال الريفي، الأولى بمحاذاة واد مجاز قصد زراعتها خضر وفواكه والاستفادة من مياه هذا الوادي، مساحتها: والثانية مساحتها: 24هـ، 41 آر، 99 س آر. معدة لزراعة الحبوب وهذا بموجب قرار صدر عن الحاكم العام للجزائر مؤرخ في 27 فيفري 1873.

وكتشجيع للعملية الاستيطانية توسعة المركز الاستيطاني، قامت الدولة بالتنازل عن بعض أملاكها هناك للمعمرين، فباعتهم أو وهبتهم إياها، ومن ضمن من شملهم هذا القرار:

(Rapport de Centre de colonisation de St Arnaud, 1945:12 13)

- المعمر بريزارد فرانسيلان Brisard Ffranclin: حصل في المجال

الحضري على مساحة قدرها: 8 آر، 48 س آر، بقرار من الحاكم العام
مؤرخ في 27 ديسمبر 1877، مؤكداً بقرار 16 جانفي 1878.

- ليفرون بيار: Levrant Pierre: تحصل على 45 هـ، 85 آر،

بقرار من الحاكم العام، كؤرخ في 20 ديسمبر 1874.

وعلى غرار المعمرين، تحصل بعض الجزائريين على قطع أراضي
في هذه المركز، ويبدون من الشخصيات المنتفذه المعروفة في منطقة
سطيف وما جاورها باعتبار اجل جلهم قد بدؤوا بكلمة (سي)، والتي
تطلق في العادة للاحترام خاصة في العهد الاستعماري، ونذكر مهم على
سبيل المثال لا الحصر:

- سي احمد بن محمد السعيد: تحصل على مساحة: 29 هـ، 94 آر،

80 س آر، بموجب قرار الحاكم العام المؤرخ في 1 أبريل 1864.

- سي بوضياف بن محمد بن السعيد: تحصل على مساحة 29 هـ،

09 آر، 70 س آر، بقرار الحاكم العام مؤرخ في 1 أبريل 1864.

- سي عبد الله بن بوراس: تحصل على 29 هـ، 99 آر، 13 س آر،

بقرار من الحاكم العام مؤرخ في 1 أبريل 1864.

ويبدو من بعض المعطيات أن هؤلاء الفئة ممن شملتهم المنح
والامتيازات الفرنسية أو التعويضات، ففي العادة عندما يقدم أشخاص
معينون خدمات كالمساعدة على تهدئة القبائل أو العمل في فرق

الصبايحية- والمشاركة في المعارك، فإنهم يحصلون على تعويضات وما يؤكد هذا هو التاريخ الذي منحت لهم فيه هذه الأراضي، فكلها مؤرخة في التاريخ نفسه، كما أنه ليس من عادة فرنسا منح الأراضي للعرب وهي الساعية دوما لانتزاعها منهم.

كما توجد في المركز بعض المرافق العامة التابعة للملكية المشتركة، التي تأسست لتحسين حياة المواطنين في المركز الاستيطاني سانت أرنو، وهي: بيت القسيس، ومقر الدرك الوطنين، ومدرسة للذكور وأخرى للإناث، وكنيسة ومقبرة كاثوليكية، ومخازن للحبوب ومطاحن مائية وأبار، وحدائق عمومية للاستراحة، وكل هذه المرافق شغلت: 241هـ، 49آر، 20 س آر من المساحة الإجمالية للمركز.

(Rapport de Centre de colonisation de St Arnaud, 1945:15).

رد فعل قبيلة العلمة من سياسة التفكيك: أثناء البحث في المصادر التاريخية لم نعثر على إشارات حول رد فعل قبيلة العلمة حول هذه السياسة المتبعة من قبل الاحتلال، وبالتالي فالراجح أن القبيلة مالت إلى الهدوء ويدعم هذا الرأي العديد من العوامل:

- تمكن الاحتلال الفرنسي من السيطرة على القبيلة بشكل نهائي وكلي بداية من عام 1840، وتمركزه فيها ومراقبته لها.

- لم تكن قبيلة العلمة في وضع بشري جيد يمكنها من حشد قوة للمواجهة، ففي أفضل حالاتها تتمكن من جمع 200 فارس.
(Rapport de s.c de la tribu d' Eulma, 1869: 109).

-وقوع القبيلة جغرافيا بالقرب من مدينة سطيف، وبالتالي كانت تحت المراقبة وكان بإمكان الحامية الفرنسية في سطيف الوصول إليها بسرعة، كما تحيط بالقبيلة قبائل قوية دخلت في خدمة الاستعمار كقبيلة ريغة الظهارة.

(Rapport de s.c de la tribu de Righa Dahara, 1866 : 24 25)

-المجال الجغرافي للقبيلة عبارة عن سهول واسعة مع عدم وجود أي تضاريس وعرة أو غابات تتيح لها فرصة المواجهة، وهو ما يفسر وقوعها أثناء العهد العثماني تحت ما يسمى قبائل الرعية. ولكن هذا لا ينبغي أن القبيلة حاولت الانعتاق من سيطرة الاحتلال الفرنسي، إذا أننا نجد بعض سكانها قد ساند ثورة المقراني عام 1872، ويظهر ذلك من خلال الأفراد من عائلة العيلة الذين تم نفيهم إلى كاليدونيا الجديدة (الصادق تاوتي، 2007: 192).

الخاتمة:

بعد دراستنا لهذا الموضوع توصلنا إلى النتائج التالية:
- عرفت الجزائر خلال العهد العثماني عدة أصناف من القبائل وهي القبائل الرعية والممتنعة والمخزنية والمتحالفة، وقد كانت العلة من القبائل الرعية.
- دفعت قبيلة العلة الضرائب للأتراك الذين تحكموا بها عن طريق شيوخ معينين أو ببناء الأبراج أو بواسطة القبائل المخزنية.

- سيطرت السلطة الفرنسية على قبيلة العلة وأخضعتها لمختلف القوانين العقارية لاسيما القانون المشيخي 22 أبريل 1863.
- تفككت قبيلة العلة مع بداية القرن العشرين، حيث عمل الاستعمار الفرنسي على هذا مدفوعاً بحاجته للمزيد من الأراضي اللازمة للاستيطان محولاً إياها من قبيلة إلى دواوير وبلديات.
- أجهز الاستعمار على هذه القبيلة ومنع أي تقارب بين مكوناتها نهائياً ببناء المركز الاستيطاني سانت أرنو في وسطها، مانعاً تلاحمهم من جديد.
- نظير الضغط الفرنسي اختفت قبيلة العلة، ولم يبق منها سوى

الاسم.

قائمة المراجع:

- ابن خلدون عبد الرحمن، (2000). تاريخ ابن خلدون، ج6، لبنان: دار الفكر للنشر والتوزيع.
- أحمد باي، (1971). مذكرات الحاج أحمد باي، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- تاوتي الصديق، (2007). المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة مأساة هوية منفية، ط1، الجزائر: دار الأمة للنشر والتوزيع.
- سعد الله أبو القاسم، (1992). الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ج1، ط1، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- سعيدوني ناصر الدين، (2013). الشرق الجزائري بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي من خلال وثائق الأرشيف، ط2، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

شويتام أرزقي، (2009). **المجتمع الجزائري فعالياته في العهد العثماني (1519-1830)**، ط2، الجزائر: دار الكتب العربي.

فان مالتسان هانريش، (2009). **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا**، ترجمة أبو العيد دودو، ج1، طبعة خاصة الجزائر: شركة دار الأمة للنشر والتوزيع.

متحف الآثار للولاية سطيف (2001). **مدينة سطيف ومعالمها التاريخية**، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة.

Badjadja Abdelkrim. (1974). **carthographie agraire de l'Est Algérien a la fin de XIX siecle**.diplôme d'études approfondies. Département de Geographie Université de constantine. Algéria.

Ben Honet Yazid. (2007). **"des tribus en Algérie"**, cahiers de Meditteranean . n : 75. Avril 2019.

De Arthur Calparé. (1896). **en Algérie**. Genève: Eggiman libraire éditeur.

Dumas Eugène. (1851). **Les chevaux de Sahara**. France. F. Charmeront libraire éditeur.

F.Accardo. (1892). **tableau général des commune de l'Algérie dressé par ordre de J. Cambon**. Alger: impremerie Pierre Fontana et Compagnie.

Rapport de la centre de colonisation de saint Arnaud. (1945). n 12 archive de CADASTR de Sétif.

rapport de senatus consult 22 avril 1863 de la tribu de righa Dhahara, n 25. CADASTR de Sétif.

Rapport de senatus consult 22 avril 1863 de tribu d'Eulma, n 124. CADASTR de Sétif .

Rapport de senatus consult 22 avril 1863 de tribu de Beni Yala, n 92. CADASTR de Sétif.

Varlet. Jules. (1900). **Les céréales d'Algérie**. Alger: Mustapha giralt imprimerie